دراسات
ISSN: 2090 – 0449 Online
ISI International Scientific Indexing, [8140].
AIF Arab Impact Factor for Arabic Scientific Journals, [1.3].

نمطية الحياة العلمية في حواضر المغرب العربي الإسلامي في القرنين الثاني والثالث الهجريين/ التاسع والعاشر الميلاديين

د. ماجدة مولود رمضان الشرع
أستاذ مساعد التاريخ الإسلامي
قسم التاريخ – كلية الآداب
جامعة طرابلس – دولة ليبيا

مُلَخّص

ساهمت مرحلة الفتح العربي الإسلامي لبلاد المغرب في منتصف القرن (الأول الهجري/ السابع الميلادي) في إيجاد هوية جديدة لسكان المنطقة المغاربية، حيث اُعتبرت مرحلة أساسية في تاريخ المغرب؛ فقد تغيرت ماهيتها وكينونتها إلى بلاد عربية ومسلمة. وقد استحدثت في المغرب الإسلامي عدة مدن كان لها الدور الريادي في الإشعاع الثقافي والحضاري خلال القرون الثلاثة من العصر الإسلامي، فشكلت أواصر التواصل الحضاري فيما بينها، كما ارتبط إنشاء المدن بالإطار التنظيمي للمجتمع الإسلامي فقد عبرت عن قالب حضاري وفكري. في هذا البحث سيتم الحديث الوضعية المكانية والزمانية للحواضر المهمة في بلاد المغرب العربي الإسلامي ودورها في إثراء المنطقة علميًا وثقافيًا وترسيخ كل صنوف العلم المشرقي في عقول سكان المغرب، إضافة إلى ذلك سيتم الحديث على نوعية المؤسسات التعليمية في بلاد المغرب العربي الإسلامي). تم استخدام المنهج التاريخي الوصفي في دراسة هذا الموضوع والقائم على تتبع الأحداث التاريخية في تأسيس هذه الحواضر وتقديم وصف جغرافي تضاريسي لها. وقد توصلت الدراسة إلى أن حواضر المغرب العربي الإسلامي استطاعت خلال فترة وجيزة خاصة بعد الفتح العربي من الركب واللحاق بموكب العلم أسوة بحواضر المشرق العربي الإسلامي والتي ساهمت هي الأخرى في إحداث طفرة علمية ودينية وثقافية في المنطقة المغاربية.

بيانات الدراسة:

تاريخ استلام البحث: ٠٨ يناير ٢٠٢٠
تاريخ قبـول النشـر: ٢١ فبراير ٢٠٢٠

كلمات مفتاحية:

مدينة القيروان؛ سجلماسة؛ المغرب الإسلامي؛ المغرب الأقصى؛ المغرب الأوسط

معرِّف الوثيقة الرقمي:

DOI 10.21608/KAN.2020.149528

الاستشهاد المرجعي بالدراسة:

ماجدة مولود رمضان الشرع. "نمطية الحياة العلمية في حواضر المغرب العربي الإسلامي في القرنين الثاني والثالث الهجريين/ التاسع والعاشر الميلاديين".- دورية كان التاريخية.- السنة الثالثة عشرة- العدد السابع والأربعون؛ مارس ٢٠٢٠. ص ٤٠ – ٤٧.

Official website: http://www.kanhistorique.org
Twitter: http://twitter.com/kanhistorique
Facebook Page: https://www.facebook.com/historicalkan
Facebook Group: https://www.facebook.com/groups/kanhistorique

Corresponding author: mmgda2223@gmail.com
Egyptian Knowledge Bank: https://kan.journals.ekb.eg
Editor In Chief: mr.ashraf.salih@gmail.com
Inquiries: info@kanhistorique.org

Open Access This article is distributed under the terms of the Creative Commons Attribution 4.0 International License (https://creativecommons.org/licenses/by-nc-nd/4.0), which permits unrestricted use, distribution, and reproduction in any medium, provided you give appropriate credit to the original author(s) and the source, provide a link to the Creative Commons license, and indicate if changes were made.

نُشرت هذه الدراسة في دَّورِيةُ كَان الْتَّارِيْخية للأغراض العلمية والبحثية فقط، وغير مسموح بإعادة النسخ والنشر والتوزيع لأغراض تجارية أو ربحية.

مُقَدِّمَةُ

ساهمت عملية الفتح العربي الإسلامي لبلاد المغرب بكافة تقسيماته (الأدنى – الأوسط – الأقصى) في ظهور عدد من المدن والحواضر ذات ثقل سياسي وعلمي مثل مدينة القيروان وتاهرت، وسجلماسة وفاس، حيث لعبت هذه الحواضر دورًا رياديًا في جعل بلاد المغرب العربي الإسلامي مزارًا علميًا يأتيه القاصي والداني؛ لتلقي دروس العلم في كافة التخصصات المتاحة آنذاك. تنحصر أهمية هذا الموضوع في إبراز الأهمية التاريخية والعلمية لهذه الحواضر ودورها في نشر الثقافة العربية الإسلامية في المنطقة المغربية. أما أسباب اختيار موضوع البحث فتتمثل في إعطاء مساحة توضيحية وصفية لتلك الحواضر المغربية من الناحية الجغرافية والتاريخية والعلمية الثقافية بصرف النظر عن الوضع السياسي الذي كانت تمثله كل حاضرة على حدة خلال القرنين (الثاني والثالث الهجريين/ التاسع والعاشر الميلاديين). تم استخدام المنهج التاريخي الوصفي في دراسة هذا الموضوع والقائم على تتبع الأحداث التاريخية في تأسيس هذه الحواضر وتقديم وصف جغرافي تضاريسي لها.

أولاً: الوضعية المكانية والزمانية لحواضر المغرب العربي الإسلامي خلال القرنين الثاني والثالث الهجريين/ القرن التاسع والعاشر الميلاديين

١/١-مدينة القيروان في المغرب الأدنى " أفريقية"

أصل التسمية التاريخية لمدينة القيروان تعود إلى اللفظة الفارسية "كروان"، والتي تعني محطة أو تجمع عسكري للدفاع عن المدينة[١]، فسر ابن الأثير معنى اللفظ بأنه معظم العسكر والقافلة من، الجماعة حيث قال": ثم رأى أن يتخذ مدينة تكون بها عسكر المسلمين وأهلهم وأموالهم من ثورة تكون من أهل البلاد فقصد موضع القيروان"[٢].

وأول مَنْ فكر في بنائها هو القائد العربي عقبة بن نافع،[٣] حيث رأى أنه من الضروري بناء قاعدة ثابتة للفتح الإسلامي في إفريقية ولما عزم على بناءها قال" :إن إفريقية إذا دخلها أمير تحزم أهلها بالإسلام فإذا خرج منها رجعوا إلى الكفر وإني أرى أن أتخذ بها مدينة نجعلها معسكرا وقيروانًا تكون عز الإسلام في آخر الدهر"،[٤] فكان الاقتراح في البداية أن تبنى بالقرب من البحر لكن عقبة رفضه لما يحمله من مخاطر من جانب الروم فتم الاتفاق على أن يكون بناؤها في موقعها الحالي فتم بناؤها سنة ٥٠هـ / ٦٧٠م[٥].

كان مكان بنائها عبارة عن واد كثير الشجر تأوي إليه السباع والوحوش فرفع عقبة يديه ونادي مناجيًا ربه ثلاثة فخلت الغابة من الدواب والوحوش بكرامة أجراها الله على يديه، ثم قال للجند": انزلوا باسم الله، مرات وابنوا مسجد ودار الإمارة"، وبني الناس بيوتهم واحتاروا في أمر القبلة؛ لأنها ستكون قبلة أهل المغرب والأندلس باتجاه الكعبة فكانت القيروان كرامة وبركة، المغرب والأندلس باتجاه الكعبة فحددها لهم عقبة عن طريق رؤية رآها، فكانت القيروان كرامة وبركة على أرض أفريقية[٦].

ونظرًا لتأسيس الصحابة لهذه المدينة وكونها منطلق الجيوش ومهبط القراء في أفريقية والأندلس أصبحت القيروان مدينة جليلة مباركة يهابها الأعداء ويألف لها الدعاة والعلماء فقصدها الناس من كل مكان وأصبحت عاصمة المغرب السياسية والعلمية والدينية [٧]. وبذلك أُعتبرت القيروان قاعدة الإسلام والمسلمين، وفي هذا قال بخصوصها الدباغ: "فهي قطرهم الأفخر الذي أصبح لسان الدهر عن فضله يعرب، وبشرفه يعرب، قرارة الدين والإيمان والأرض المطهرة من رجس الكافرين وعبادة الأوثان، قبلها أول قبلة رُسمت في البلاد المغربية وسجد لله فيها سرًا وعلانية ناهيك بأرض، قبلتها أول قبلة رسمت في البلاد المغربية، ناهيك بأرض كانت منازل أصحاب نبينا (ﷺ) ومحط رحالهم ومعقلهم للإسلام المقصود إليها بسيرهم وأثقالهم، والبقعة التي يخيروها مقرا للإسلام والمسلمين"[٨].

كانت القيروان مقصدًا للقادة العرب، حيث كان يأتون إليها من المشرق على رأس جيوشهم في طريقهم إلى المغرب وشهدت ازهي عصورها زمن الإمارة الأغلبية خلال فترة تواجدها السياسي (١٨٤-٢٩٦هـ/ ٨٠٠-٩٠٩م).[٩] أشار بعض المؤرخين الجغرافيين إلي مدينة القيروان في مؤلفاتهم، حيث ذكر اليعقوبي بقوله: "القيروان من قابس إلى مدينة القيروان أربع مراحل أولها الزيتونة غير آهلة، ثم مدينة القيروان العظمي كان عليها سور من طين وفيها أخلاط من الناس من قريش ومن سائر بطون العرب من مصدر وربيعة وقحطان وبها أصناف من العجم من أهل خراسان ومن كان وردها مع عمال بني هاشم من الجند.[١٠]

أما الإصطخري فيقول فيها: "والقيروان هي أجل مدينة بأرض المغرب فلا قرطبة بالأندلس فإنها أعظم منها وهي المدينة التي كان يقيم بها ولاة المغرب وكانت كذلك مقام

الأغلب وبنيه"[١١]. ويذكر ابن حوقل "أن القيروان كانت أعظم مدينة بالمغرب وأكثرها أموالا وتجرا وأحسنها منازل وأسواقا" [١٢]. البكري ذكرها بقوله: "أن القيروان في بساط من الأمر مديد في الجوف منها بحر تونس، وفي الشرق بحر سوسة والمهدية وفي القبلة بحر صفاقس وقابس".[١٣] وبهذا تحظى القيروان بأهمية كبيرة في الجانب الثقافي والحضاري إذ تظهر أهميتها في أنها شكلت نقطة وصل واتصال بين المشرق والمغرب حيث يذكر الشيخ الصالح الفقيه أبو مهدي عيسي الصميلي بن مرزوق لذي كانت له رحلة علمية إلي المشرق فبعث لأصحابه بالقيروان وهو يقول: "مازالت ابحث في الآثار الأخبار إلى أن وجدت أن القيروان رابعة الثلاثة: المدينة، ومكة، وبيت المقدس، والقيروان".[١٤] وبذلك تمثلت أهميتها في أنها وضعت أول قبلة للمسلمين وبني بها أول جامع في بلاد المغرب، وكانت مستقر الفقهاء والعلماء والزهاد والصالحين[١٥].

وفي هذا السياق قال عنها عبد الواحد المراكشي: "وكانت القيروان هذه في قديم الزمان إلي أن خربها الأعراب دار العلم بالمغرب، إليها ينسب أكابر علمائه واليها كانت رحلة أهله في طلب العلم".[١٦] وباعتبارها مركزًا للإشعاع الثقافي والديني إلى جانب أنها عاصمة سياسية لبلاد المغرب قامت بإرسال علماء إلى المناطق المجاورة وبالمقابل كان يفد عليها طلاب لتلقي العلم من علمائها، كما استفادت القيروان من العلماء المشارفة الذين وفدوا عليها فكانت على صلة دائمة مع المراكز الكبرى للدراسات الإسلامية بالحجاز (مكة والمدينة) والشام والعراق مما أدى إلى نضج الحياة الفكرية وازدهارها[١٧]. وهكذا أمتاز النشاط الثقافي في القيروان بكثرة الفقهاء والعلماء فأصبحت مركزًا ذاع صيته ليس في المغرب والأندلس فقط بل في المشرق أيضًا.[١٨]

٢/١-تاهرت في المغرب الأوسط

شكلت مدينة تاهرت معقلاً للإباضية[١٩] الذين سكنوها وأسسوا دولتهم هناك، بحيث غلب المذهب الإباضي على بلاد المغرب الأوسط، فانتشر بين قبائله وخاصة جبل نفوسة وهوارة [٢٠] ويبدو أن الإباضية لم يكونوا قد تهيئوا بعد لمرحلة الظهور حتى بداية العقد الرابع من القرن الثاني الهجري أي حتى قيام ثورة أبي الخطاب عبد الأعلى بن السمح المعافري [٢١] ؛ مما دفع زعماء الإباضية في المغرب الأوسط للرحيل إلى البصرة؛ لغرض الاسترشاد بمشائخ المذهب في الإعداد المنظم والمحكم لإيجاد أرضية مناسبة للمذهب الإباضي في المنطقة المغاربية، وقد عادوا إلى المغرب بعد أن مكثوا خمس سنوات بصحبة أبي عبيدة مسلم بن أبي كريمة وجماعة شيوخ المذهب وقد تذرعوا بالأساليب والوسائل الكفيلة، لإنجاح حركتهم فقام الإباضيون بالسيطرة على طرابلس واستولى أبو الخطاب على جزيرة جربة وجبل دمر وضم قابس ودانت بلاد المغرب الأدني لطاعته [٢٢].

ثم توجه أبو الخطاب بعد ذلك نحو القيروان فالتقى[٢٣] الصفرية[٢٤] في موضع قرب القيروان اسمه رقادة[٢٥]، وهناك دارت معركة عنيفة أسفرت عن انهزام الصفرية وبعد دخول أبو الخطاب إلى القيروان سنة (١٤١هـ/ ٧٥٨م) واستخلف عليه ا[٢٦] عبد الرحمان بن رستم [٢٧]. هذا واتفقت الإباضية على مبايعته بعد المشاورة فيقول ابن الصغير في ذلك": لما نزلت الإباضية مدينة تاهرت و أرادوا عمارتها فقالوا: قد علمتم أنه لا يقيم أمرنا إلا إمام نرجع إليه في أحكامنا وينصف مظلومنا من ظالمنا، ويقيم لنا صلاتنا ونؤدي إليه زكاتنا... ولقد كان الإمام أبو الخطاب رض ي لكم عبد الرحمان قاضيًا وناظرًا فقلدوه أموركم فإن عدل فذلك الذي أردتم وإن سار فيكم بدون عدل عزلتموه"[٢٨]. وبعد انهزام أبو الخطاب تسلل عبد الرحمان بن رستم إلى المغرب الأوسط وهناك احتضنته القبائل الإباضية ومنها لماية [٢٩]، بالإضافة للقبائل التي ارتحلت من زناتة وهوارة لتكون بذلك أول خطوة في تأسيس الدولة الرستمية [٣٠].

ولما كثر عدد الإباضيين في المغرب الأوسط بدئوا يفكرون في بناء مدينة تأويهم وتكون حصنا لهم يحميهم من الأخطار الخارجية التي تهددهم، فكانت مدينة تاهرت هي المكان الذي وقع اختيارهم عليه والتي أصبحت فيما بعد عاصمة الدولة الإباضية الجديدة [٣١]. وبذلك اعتبرت مدينة تاهرت مثلها مثل مدينة القيروان ذات الأهمية العلمية والدينية في المغرب الأوسط.

وحول الوصف الجغرافي والتضاريسي لهذه المدينة تحدث عنها المؤرخين الجغرافيين، في هذا قال عنها الإصطخري: "وهي مدينة كبيرة خصبة واسعة البرية والزروع والمياه، وبها الإباضية وهم الغالبون عليها"[٣٢].

ذكر اليعقوبي":أن تاهرت مدينة آهلة بين أودية وجبال ليس لها فضاء بينها وبين البحر المالح مسيرة ثلاث رحلات في مستوى من الأرض وفي بعضها سباخ ووادي يقال له وادي الشلف وعليه قرى وعمارة يفيض كما يفيض نيل مصر يزرع عليه الكتان والسمسم...وشرب أهل مدينة تاهرت من أنهار وعيون يأتي بعضها من الصحراء، وبعضها من جبل يقال له

جزول " [٣٣] أما ابن حوقل فيصفها": بأنها كورة من إفريقيا عند الجميع وكانت في القديم مفردة العمل والاسم والدواوين"[٣٤].

من خلال وصف الرحالة والجغرافيين نستنتج أن اختيار موضع تاهرت كان لموقعها الممتاز ولمميزات ذات كفاءة عالية منها أنها بعيدة عن خطر العباسيين المناوئين للمذهب الأباضي، كما أن هذه المدينة محاطة بقبائل داعمة مشهورة بانتمائهم القوي للمذهب الإباضي[٣٥]. ساهم أغنياء مدينة تاهرت في بناء عدد كبير من المساجد؛ بغية تنشيط المدينة علميًا واقتصاديًا [٣٦]، بالإضافة إلى التوسع العمراني الكبير خاصة في عهد أفلح بن عبد الوهاب الذي جعل تاهرت، مقصد العلماء والأدباء والفقهاء بمختلف تياراتهم المذهبية ولأن موقعها جعلها ملتقى تجاري وعلمي ومذهبي جعل بعض المؤرخين يشبهونها بقرطبة ودمشق وبغداد [٣٧].

١/٣-سجلماسة في المغرب الأقصى

كان للموقع الجغرافي المميز الذي حظيت به مدينة سجلماسة بالمغرب الأقصى دور مهم في تاريخها؛ الأمر الذي جعل منها مدينة ذات كيان حضاري في قلب الصحراء، كما أنها أصبحت من أعظم مدن المغرب الأقصى وأجلها في العصر الإسلامي، وقد أشادت مصادر الرحالة والجغرافيين في وصفها فقال اليعقوبي فيها: "وسجلماسة مدينة على نهر يقال له زير وأهل سجلماسة أخلاط والغالبون عليها البربر وأكثرهم صنهاجة" [٣٨].

وفيها قال الاصطخري": أن سجلماسة مدينة وسطها من حد تاهرت إلا أنها منقطعة لا يسلك إليها إلا في القفار والرمال وهي قريبة من معدن الذهب أرض السودان"[٣٩]، ووصفها ابن حوقل: "وسجلماسة مدينة حسنة الموضع جليلة الأهل فاخرة العمل على نهر يزيد في الصيف كزيادة النيل أهلها قوم سراة مياسير يباينون أهل المغرب في المنظر والمخبر".[٤٠] ومدينة سجلماسة مدينة عظيمة من أعظم مدن المغرب وهي على طرف الصحراء يسكنها قوم من مسوفة رحالون يستقر بهم مكان ليس لهم مدن ولا عمارة يأوون إليها، وهي مدينة محدثة بنيت سنة (١٤٠هـ/ ٧٥٨م) أسسها مدرار بن عبد الله وكان رجلاً من أهل الحديث[٤١].

٤/١-فاس في المغرب الأقصى

تأسست مدينة فاس في عهد إدريس الثاني (١٩٢هـ/ ٨٠٨م) زمن دولة الأدارسة، وصفها البكري قوله: "إن هذه المدينة تتكون من مدينتين مختلفتين ويحيط بكل منها أسوار، كما يفصلها نهر شديد التيار"(وهو ما يسمى إحداهما ضفة القرويين والثانية ضفة الأندلسيين وتقع الأولى إلى الغرب من الثانية .... قد تأسست في السنة التالية في عهد إدريس بن إدريس.[٤٢] عقب تأسيسها سرعان ما ازدهرت وأصبحت محط رحال كثير من العلماء والفقهاء حتى ينالوا حظ التقرب من رجال دولة الأدارسة الجديدة فاشتهر اسمها في الآفاق وتمتعت بنفس الخصائص التي تميزت بها حواضر المغرب الإسلامي في المجالين الحضاري والعمراني[٤٣].

وكانت فاس أحد ركائز الصراع بين الأمويين في الأندلس والفاطميين في إفريقيا، وظلت المدينة تحت سيطرت الأمويين في الأندلس لمدة تزيد على الثلاثين عامًا، وتمتعت المدينة خلال تلك المدة بالتطور والازدهار في كل المجالات وعندما ضعف حكم الأمويين بالأندلس وقعت مدينة فاس تحت سيطرة أمراء زناتة، الذين كانوا على خلاف مستمر فيما بينهم، وظلت هكذا إلى قدوم المرابطين، ومن بعدهم الموحدين وكذلك بنو مرين الذين اتخذوها حاضرة لهم بدلا من مدة مراكش وأصبحت فاس مرة أخرى مركزًا حضاريًا، حيث عاد لها التميز السياسي والاقتصادي والفكري بين سائر مدن بلاد المغرب العربي الإسلامي [٤٤].

فيما يتعلق بالناحية الفكرية ظلت فاس لعهود طويلة العاصمة الدينية للمغرب منذ إنشائها في عهد الأدارسة، حيث بها أعرق وأقدم المؤسسات العلمية وهو "جامع القرويين" الذي أسسته السيدة فاطمة بنت محمد الفهري سنة (٢٤٥هـ/ ٨٥٩م).[٤٥] وصفها لسان الدين بن الخطيب بقوله: "بلد المدارك والمدارس والمشائخ والفهارس وديوان لراجل والفارس، والباب الجامع من موطأ المرافق، ولواء الملك الخافق، وتنور الماء الدافق".[٤٦]

ثانيًا: المؤسسات التعليمية في المغرب الإسلامي

تميزت الحياة الفكرية والعلمية في المغرب الإسلامي في القرن الثاني الثالث الهجريين/ التاسع والعاشر الميلاديين بالنشاط و الاستقرار فكانت ذات طابع ديني في اغلب الأحيان؛ حيث كانت هناك مؤسسات تعليمية هدفها ترسيخ معالم الشريعة الإسلامية والمبادئ المذهبية للحنفية[٤٧]. والمالكية[٤٨] وبعض المذاهب الخارجية كالإباضية والصفرية[٤٩]. والمعتزلة [٥٠]، والشيعية[٥١]. إن ظهور ازدهار الثقافة وتطور التعليم ساهم في ظهور جيل من العلماء الذين قادوا المسيرة العلمية إلى أعلي مراحل تطورها، وتتمثل أعمدة المؤسسات التعليمية في بلاد المغرب العربي الإسلامي في:

٢/١-الكتاتيب

تعتبر الكتاتيب من أقدم المؤسسات التعليمية في التاريخ الإسلامي، بحيث دخل هذا النوع من النظام التعليمي لبلاد المغرب مع الفاتحين الأوائل[٥٢]. الكُتاب هو عبارة عن مكان الذي يتعلم فيه الصبيان؛ و يعود سبب تسميته بالكتاب ُ أن الطفل يتعلم فيه الكتابة وقراءة القرآن الكريم[٥٣]. وفي تعريف آخر للكتاتيب هي عبارة عن حجرات صغيرة مجاورة للمساجد تخصص لتعليم الصبيان الصغار بدلا من تدريسهم في المساجد المخصصة للصلاة؛ حفاظا على طهارتها[٥٤].

هناك أسباب اقتضت أن يكن هناك فصل بين الكُتاب عن المسجد وقيامه في نفس الوقت إلى جانبه لغرضين أولهما: أن الكُتاب كان لتعليم الصبيان الذين لم يبلغوا سن الرشد، وثاني غرض: هو لتفسير ارتباط الكُتاب بالمسجد فإن ذلك راجع إلى طبيعة العلوم التي كانت تدرس في الكتاتيب وهي دينية بحتة أو مرتبطة به كاللغة العربية التي تعد الوسيلة الوحيدة لتعلم وقراءة القرآن وحفظه[٥٥]، حيث كان التلميذ في الكُتاب يكتب دروسه على لوح من خشب؛ لندرة الورق في ذلك الوقت فإذا تمت عملية الحفظ يتم غسل ما في اللوح استعملت هذه الطريقة طول الفترة الوسيطة [٥٦].

عرفت الكتاتيب تزايدًا مستمرًا في المغرب الإسلامي خاصة وأن سكان المغرب كانوا يتزاحمون للدخول في الدين الإسلامي، فأقبلوا على تعلم الدين واللغة والآداب لذلك كانت الكتاتيب محل عناية من قبل كبار وأعيان المسلمين[٥٧]، فانتشرت بذلك الكتاتيب في مختلف حواضر المغرب الإسلامي بحيث تكاثرت في القيروان وفي المدائن الكبرى كتونس وسوسة وصفاقس[٥٨]. كان سكان المغرب العربي الإسلامي حريصين على أن يتخذوا لأبنائهم الكتاتيب الصغيرة الملحقة بالمساجد؛ ليدرسوا فيها القرآن والحديث والدين واللغة العربية[٥٩]. ولعل من أبرز العلماء الذين ساهموا في النشاط التعليمي في الكتاتيب أبو علي شقران بن علي الهمذاني (ت.١٦٨هـ/ ٧٨٤م) الذي كان من فقهاء إفريقية وكان يقوم بتعليم التلاميذ في كُتاب منسوب إليه في القيروان [٦٠].

٢/٢-المساجد

تعتبر المساجد هو أقدم المؤسسات التعليمية في الإسلام، فالتعليم يرتبط ارتباطا وثيقا به، فالمسجد هو قبل كل شيء مكان للعبادة ومكانًا لتعليم القرآن وفهم آياته وأحكامه[٦١]. كانت للمساجد دور فعال في الحياة السياسية والاجتماعية والدينية في بلاد المغرب العربي الإسلامي فكانت تذاع فيها الأخبار الهامة التي تتعلق بمصالح العباد هذا إضافة إلى وظائفه، فيه الأخبار الهامة التي تتعلق بمصالح العباد، وعقد حلقات البحث والمناظرات والاستماع لدروس الوعظ والإرشاد [٦٢]. كان العلماء والمشائخ في المساجد يحفزون طلابهم لدراسة اللغة العربية ومن أقوالهم": من تعلم حرفا من العربية كتعلم ثمانين مسألة من الفروع ومن تعلم مسألة من الفروع كعبادة ستين سنة" [٦٣].

كان الطلبة يتعلمون في المساجد أيضًا أصول الفقه والعلوم العربية، التفسير والحديث والأدب والنحو والصرف[٦٤]، فكان يرابط في هذه المساجد العلماء الكبار فتتوالى عليهم مختلف الحلق فيلقون على تلاميذهم مختلف الدروس والمحاضرات من ثانوية وعالية على حسب مستوى التلاميذ الذين يتلقون عنهم والطلبة الذين يؤمون حلقهم، فكانوا يلقون عليهم الأسئلة ويناقشونهم، وتضمنت المساجد أمكنة لإقامة الطلبة الذين يأتون من أماكن بعيدة[٦٥].

كانت عملية بناء المساجد تتم عن طريق الدولة آنذاك، أو عن طريق الأغنياء والمقتدرين ماديًا، فهناك عدة مساجد بُنيت من هذا وذاك مثل مسجد القيروان الذي تم بناؤه زمن الإمارة الأغلبية سنة (٢٥٢هـ/ ٨٦٦م)[٦٦]، بالإضافة إلى مسجد ابن ميسرة [٦٧]. أيضًا مسجد الزيتونة الذي يعتبر من أهم مساجد بلاد المغرب الأدنى، حيث كان له دور الأساس في تعليم ونشر العلوم الشرعية [٦٨].

٢/٣-المدارس

المعني اللغوي لكلمة المدرسة مشتقة من الفعل درس الكتاب يدرسه درسًا[٦٩]، حيث ظهرت هذه المؤسسة التعليمية عقب امتلاء المساجد بالطلبة؛ فاستحال بذلك أن تؤدي وظيفتين معًا التي منها أداء الشعائر الدينية والتدريس بسبب اتساع حلقات المدرسين وازدياد عدد الطلبة بالإضافة لي تعدد الأصوات، وكثرة المناقشات، بالإضافة إلي ظهور العلوم التي تستدعي الحوار كعلم الكلام[٧٠].

٢/٤-الرباطات

تعريف الرباط لغةً: هو الثبوت واللزوم وربط النفس على الأمر أي تتبيثهما عليه وإلزامها إياه، أما اصطلاحًا فهو ملازمة الثغور والثبوت بها وفرائضه النية والزاد الحلال والعدة والمعقل [٧١]. إذًا هي عبارة عن ثكنة تتألف من حصن وعشرات الغرف المنفردة بجامع كبير ومئذنة مستديرة[٧٢]، انحصر بناؤها في بداية الأمر للأغراض دفاعية خاصةً وأن معظم دول المغرب الإسلامي كانت معرضة للغارات البحرية الآتية من

القسطنطينية وجنوب إيطاليا وبعض جزر حوض المتوسط كجزيرة كورسيكا وسردينيا فانتشرت الرباطات على طول سواحل بلاد المغرب العربي الإسلامي[٧٣].

إضافة إلى مهمته العسكرية والدفاعية أضيفت له مهمة تعليمية، حيث أُعتبر كمدرسة يقيم فيها المرابطون احتسابا للعلم بالإضافة إلى عملية استنساخ المصاحف وكتب الحديث والفقه، تدور فيه المجالس الفقهية وحلقات الذكر للرجال والنساء، فأصبح الرباط مع مرور الزمن نظامًا عسكريًا دينيًا تحددت أصوله وقواعده شيئًا فشيئًا [٧٤].

وُجدت عدة رباطات في المغرب العربي الإسلامي منها رباط المنستير الذي أسسه والي بلاد المغرب الأدنى هرثمة بن أعين ورباط قصر الطوب بمدينة سوسة، ورباط زياد الذي بناه عبد الرحيم بن عبد ربه الزاهد [٧٥]. وانطلاقًا من هذا فإن الرباط عمل على تبصرة الناس حول فوائد المرابطة في الثغور وترغيبهم في التعليم والجهاد لدرجة أن عبد المؤمن الجزري كان يمتطي جوادًا ويسير في شوارع القيروان يدعو الناس بملازمة الرباطات [٧٦].

خَاتِمَةٌ

خلاصة القول نستنتج أن:

١- حواضر المغرب العربي الإسلامي استطاعت خلال فترة وجيزة خاصة بعد الفتح العربي من الركب واللحاق بموكب العلم أسوة بحواضر المشرق العربي الإسلامي والتي ساهمت هي الأخرى في إحداث طفرة علمية ودينية وثقافية في المنطقة المغاربية.

٢- اختصت كل حاضرة بمذهب ديني خاص بها كالقيروان ذات المذهب المالكي وتاهرت التي انتشر فيها المذهب الإباضي، وسجلماسة بها المذهب الشيعي.

٣- كان للمؤسسات التعليمية المغربية في القيروان وتاهرت فاس، وسجلماسة دورًا مهمًا في النهوض بالحركة الثقافية والتي كان لها الفضل في تخريج العديد من العلماء في مختف التخصصات العلمية.

الهَوامِشُ:

(١) ابن منظور، **لسان العرب**، مج ٢، دار **لسان العرب**، بيروت، (د-ت)، ص ٧٧.

(٢) ابن الأثير، **الكامل في التاريخ**، ج٢، دار صادر، بيروت، ١٩٧٨، ص ٤٨٢.

(٣) عقبة بن نافع القهري: بعثه معاوية إلى بلاد المغرب الأدنى في عشرة آلاف مقاتل فافتتحها واختط القيروان وبقي بها حتى غزى أقوامًا من البربر والروم فقتل شهيدًا انظر: ابن كثير، **البداية والنهاية**، ج٨، دار الثقافة الدينية، القاهرة، ١٩٩٩م، ص ٧٦.

(٤) ابن الأثير، لمصدر السابق، ج٢، ص ٤٨٢. موسي بن لقبال، **دور كتامة في تاريخ الخلافة الفاطمية منذ تأسيسها إلى منتصف القرن ٥هـ / ١١م**، الشركة الوطنية للنشر، الجزائر، ١٩٧٩م، ص ٢٩.

(٥) ابن عذارى، **البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب**، ج ١، تحقيق: كولان برفنسال، دار الثقافة، بيروت، ط٢، ١٩٨٠م، ص ٢٠.

(٦) ابن الأثير، المصدر السابق، ج٢، ص ٤٨٣.

(٧) المصدر نفسه والجزء والصفحة.

(٨) الذباغ، **معالم الإيمان في معرفة أصل القيروان**، ج١، تحقيق: محمد ماضور وآخرون، مكتبة الخانجي (القاهرة)، المكتبة العتيقة (تونس)، ١٩٧٩م، ص ٦-٧.

(٩) عبد العزيز البكري، **معجم ما استعجم من أسماء البلاد والمواضع**، ج٣، تحقيق: مصطفي السقا، عالم الكتب، بيروت، ١٩٧٠م، ص ١١٠٥.

(١٠) اليعقوبي، **البلدان**، مطبعة بريل، ليدن، ١٨٦٠م، ص ١٣٦-١٣٧.

(١١) الإصطخري، **مسالك وممالك**، مطبعة بريل، ليدن، ١٨٧٠م، ص٣٩-٤٠.

(١٢) ابن حوقل، **صورة الأرض**، مكتبة الحياة، بيروت،١٩٩٢ م، ص ٩٤.

(١٣) البكري، **المسالك والممالك**، ج٢، تحقيق: كمال طلبة، دار الكتب العلمية، بيروت، ٢٠٠٣ م، ص ١٩٧.

(١٤) القيرواني، **آثار البلاد وأخبار العباد**، دار صادر، بيروت، (د-ت)، ص٢٤٢.

(١٥) الذباغ، المصدر السابق، ج١، ص ٧.

(١٦) المراكشي، **المعجب في تلخيص أخبار المغرب**، المكتبة العصرية، بيروت، ٢٠٠٦م، ص ٢٥٥.

(١٧) محمد محمد زيتون، "**العلاقات الثقافية بين القيروان وبين مراكز الفكر في المشرق حتى منتصف القرن الرابع الهجري**"، مجلة كلية العلوم الاجتماعية، العدد ١، ١٩٧٧م، ص٣٧٢.

(18) M. Vonderheyden: «la berberie orientale sous la dynastie des bemoul aghlab (800-909) librairie»، orientaliste ،Paul ،Gunther ،Paris.١٩٢٧ ،p 120.

(١٩) تُنسب إلي عبد الله بن عمر بن تميم بن تعلبة من بني مرة بن عبيد الذي نشأ في مدينة البصرة، ناظر الخوارج الأزارقة كما اشتهر برسائله إلى عبد الملك

بن مروان ناصحًا إياه ومبينا أراء جماعته وموقفها من انحراف السلطة الأموية عن نهج الخلفاء الراشدين، والحقيقة أن أتباع هذا المذهب إ اختاروا تسمية غير الإباضية لحركتهم منها "أهل الدعوة والاستقامة "و "جماعة المسلمين "إنما مخالفيهم هم الذين أطلقوا عليهم هذا الاسم. حول أصول هذه الحركة وطبيعة أفكارها يُنظر إلي: **أعلام الإباضية منذ القرن ا إلي العصر الحاضر**، مج١، المطبعة العربية، الجزائر، ١٩٩٩م، ص٥-٦- ٧، ٥٥١ -٥٥٢ j

(٢٠) من القبائل الحضرية " البرانس" باتفاق من نسابة العرب والبربر. حول أصول هذه القبائل يُنظر إلي: ابن خلدون": **العبر ديوان المبتدأ والخبر في أخبار العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر**، ج٦، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٨٨، ص٦.

(٢١) أصوله من بلاد اليمن، فقيه ويُعد من كبار علماء الإباضية. الدرجيني، **طبقات المشائخ بالمغرب**، ج١، تحقيق: إبراهيم طلاي، مطبعة البعث، الجزائر، ١٩٧٤م، ص ٢٢-٢٣.

(٢٢) الدرجيني، المصدر السابق، ج١، ص ٢٣.

(٢٣) المصدر نفسه والجزء والصفحة.

(٢٤) طائفة دينية من الخوارج تُنسب إلى زياد بن الأصفر. عبد المنعم الحفني، **الفرق والجماعات والمذاهب الإسلامية**، دار الرشاد، القاهرة، ١٩٩٣م، ص ٢٧٧.

(٢٥) قام ببنائها الأمير الأغلبي إبراهيم بن أحمد بن إبراهيم بن الأغلب سنة ١٨٤هـ/ ٨٠٠م. البكري، **المسالك الممالك**، ج٢، ص ٢٠١.

(٢٦) الدرجيني، المصدر السابق، ج١، ص ٢٤.

(٢٧) هناك اختلاف بين المؤرخين حول أصله، فبعضهم ارجع نسبه إلى بلاد فارس، والبعض الآخر ارجع نسبه إلى الأصل العربي. الدرجيني، **طبقات المشائخ بالمغرب**، ج١، ص ٤٤. إبراهيم بحاز، عبد الرحمان بن رستم مؤسس أول دولة إسلامية مستقلة بالجزائر (١٦٠-١٧٧هـ/ ٧٧٧- ٧٨٨م)، موفم للنشر، الجزائر، ٢٠١١م، ص ٦-٧-٨.

(٢٨) ابن الصغير المالكي": **أخبار الأئمة الرستميين**"، تحقيق: محمد ناصر وآخرون، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ١٩٨٦م، ص ٣٠.

(٢٩) لماية: قبيلة بدوية مغربية وهي فرع من ولد فاتن بن ممصيب بن حريس بن زحيك بن مادغيس الأبتر، أخذوا برأي الإباضية ودانوا به وانتحلوه وانتحله جيرانهم تلك من لواتة وهوارة. ابن خلدون، المصدر السابق، ج٦، ص ١٥٥، ١٥٨ j

(٣٠) عبد العزيز الفيلالي، **العلاقات السياسية للدولة الرستمية بين الدولة الأموية في الأندلس ودول المغرب**، الشركة الوطنية، الجزائر، ١٩٨٢م، ص٧١.

(٣١) ياقوت الحموي، **معجم البلدان**، مج١، مادة تاهرت، دار صادر، بيروت، ١٩٨٦م، صٌ ٣٣.

(٣٢) الإصطخري، المصدر السابق، ص ٣٢.

(٣٣) اليعقوبي، المصدر السابق، ص ١٩٧-١٩٨.

(٣٤) ابن حوقل، المصدر السابق، ص٩٣.

(٣٥) محمد زينهم عزب، **قيام وتطور الدولة الرستمية في المغرب**، دار العالم العربي، بيروت، ٢٠١٣م، ص ٥٦.

(٣٦) إبراهيم بحاز، **الدولة الرستمية -دراسة في الأوضاع الاقتصادية والحياة الفكرية**، جمعية التراث، الجزائر، ط٢، ١٩٩٣م، ص ٢٥٨.

(٣٧) المرجع نفسه والصفحة.

(٣٨) اليعقوبي، المصدر السابق، ص ١٥٠

(٣٩) الإصطخري، المصدر السابق، ص ٣٩.

(٤٠) ابن حوقل، المصدر السابق، ص ٩٠.

(٤١) مؤلف مجهول، **الاستبصار في عجائب الأمصار**، تحقيق: سعد زغلول عبد الحميد، مكتبة الخانجي، القاهرة، ١٩٨٧م، ص٦٧.

(٤٢) البكري، **المسالك والممالك**، ج٢ ص٢٢٦.

(٤٣) المصدر نفسه والجزء، ص ٢٩٨.

(٤٤) محمد زنبير، "**المغرب في العصر الوسيط –الدولة – المدينة - الاقتصاد**"، مطبعة النجاح، منشورات كلية الآداب، الدار البيضاء، ١٩٩٩م، ص ٦١.

(٤٥) الجزنائي، **جني زهرة الأس في بناء مدينة فاس**، تحقيق: عبد الوهاب بن منصور، المطبعة الملكية، الرباط، ط ٢، ١٩٩١م، ص ٧٣-٧٤.

(٤٦) الخطيب، **معيار الاختيار في ذكر المعاهد والديار**، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، ٢٠٠٣، ص ١٧٥.

(٤٧) الحنفية: انتشر هذا المذهب في مناطق واسعة من العالم الإسلامي ومنها بلاد المغرب خاصة في عهد الدولة الأغلبية التي كان أمراءها مرتبطين مذهبيا بالعباسيين والذي ساهم في نشره هو عبد الله بن غانم (ت. ١٩٠هـ/ ٨٠٥م -المالكي، **رياض النفوس في طبقات علماء القيروان وإفريقية وزادهم ونساكهم وسير من أخبارهم وفضائلهم وأوصافهم**، ج١، تحقيق: بشير البكوش، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ١٩٨١م، ص ١١٣.

(٤٨) المالكية: عرف هذا المذهب انتشاراً وتوسعاً كبيراً فقد أخذ منه أهل المغرب حتى أصبح مذهبًا مميز بالنسبة لهم؛ وذلك بفضل العلماء المغاربة الذين توافدوا إلى المشرق طلبًا للعلم أبرزهم عبد الله بن فروخ الذي عمل على نشر المذهب المالكي بعد عودته من المشرق في بلاد المغرب، حيث كان يكاتب الإمام مالك لاستفسار عن مسائل استعصت عليه. القاضي عياض، **تراجم أغلبية مستخرجة من مدارك القاضي عياض**، تحقيق: محمد طالبي، المطبعة التونسية، تونس، ١٩٨١م، ص١٦١.

(٤٩) عثمان سعدي، **الجزائر عبر التاريخ**، الشركة الوطنية للنشر، الجزائر، ١٩٨٢م، ص ٨٥.

(٥٠) **المعتزلة**: دخل مذهب هذه الطائفة الدينية الخارجية إلى بلاد المغرب العربي الإسلامي أوائل القرن ٢ هـ/ ٨م، حيث كانت هناك مجموعة تابعة للمذهب الاعتزالي تقيم في مدينة تاهرت من أتباع واصل بن العطاء، وعددهم قرابة الثلاثين ألفاً، كما وجد أتباعه في المغرب الأقصى زمن دولة الأدارسة. ياقوت الحموي، المصدر السابق، مج٣، ص٨.

(٥١) **الشيعة**: دخلت المذاهب الشيعية إلى بلاد المغرب منذ أن فر إدريس بن عبد الله إلى المغرب الأقصى بعد ملاحقته من الدولة العباسية السنية، وبعد تأسيسه للدولة الإدريسية ١٧٢هـ / ٨٧٨م أخذ المذهب الشيعي في الانتشار والتغلغل على يد أبي عبد الله الشيعي عراب الدولة الفاطمية الشيعية بالمغرب العربي الإسلامي والتي تأسست سنة ٢٩٦هـ / ٩٠٩م. ابن خلدون، **المقدمة**، دار الأرقم بن الأرقم، القاهرة، ٢٠٠٥م، ص٨٤-ابن الأثير، المصدر السابق، ج٣، ص٣٤.

(٥٢) ابن منظور، المصدر السابق، ص ١٣-إبراهيم حركات، **مدخل إلى تاريخ العلوم بالمغرب حتى ق (٩ هـ/ ١٥م)**، ج١، دار الرشاد الحديثة، الدار البيضاء، ٢٠٠٠م، ص١٥-١٩.

(٥٣) عبد العزيز محمد حسني": **الحياة العلمية في الدولة الإسلامية**"، وكالة المطبوعات، الكويت، ١٩٧٣م، ص ٣٢-٣٣.

(٥٤) ابن سحنون، **آداب المعلمين**، تحقيق: محمود عبد المولي، الشركة الوطنية للنشر، الجزائر، ١٩٨٤م، ص٣٧.

(٥٥) إبراهيم بحاز، المرجع السابق، ص ٢٧٦-٢٧٧.

(٥٦) ابن سحنون، المصدر السابق، ص٣٤.

(٥٧) المصدر نفسه والصفحة.

(٥٨) المصدر نفسه، ص ٣٧-٣٨.

(٥٩)، محمد زينهم، **تاريخ مملكة الأغالبة لأبن وردان**، مكتبة مدبولي، القاهرة، ١٩٨٨م، ص٢٨.

(٦٠) الشماخي، **السير**، دار الأبحاث للترجمة والنشر، الجزائر، ٢٠١١م، ص١٤٤.

(٦١) حسين محمد كمال، **انتشار الإسلام وأشهر مساجد المسلمين في العالم**، دار الفكر العربي، القاهرة، ١٩٧٦ م، ص٣١.

(٦٢) محمد بن تاويت الطنجي، **دولة الرستميين أصحاب تيهرت**، صحيفة معهد الدراسات الإسلامية، مج٥ عدد ١-٢، مدريد، ١٩٥٧م، ١٠٩-١١٠.

(٦٣) محمود حسين كورد، **الحياة العلمية في جبل نفوسة** وتأثيراها **على بلاد السودان الغربي**، مؤسسة تاوالت الثقافية، الجزائر، ٢٠٠٨م، ص ١٤٩.

(٦٤) المرجع نفسه والصفحة.

(٦٥) أنور لرفاعي، **الإسلام في حضارته ونظمه**، دار الفكر، دمشق، ط٢، ١٩٨٢م، ص ٣٥٨.

(٦٦) محمد بن محمد مخلوف، **شجرة النور الزكية في طبقة المالكية**، دار الكتاب العربي، لبنان، ١٩٨٧م، ص٤٤٧.

(٦٧) عمر رضا كحالة، **دراسات اجتماعية في العصور الإسلامية**، المطبعة التعاونية، دمشق، ١٩٧٣م، ص٥٨.

(٦٨) المرجع نفسه، ص ٧١.

(٦٩) ابن منظور، المصدر السابق، ج٤، ص٦٥.

(٧٠) احمد شلبي، **تاريخ التربية الإسلامي**، دار الكشاف للنشر، بيروت، ١٩٥٤م، ص ٩٦.

(٧١) محمد مفتاح، **"مفهوم الجهاد والاتحاد في الأدب الأندلسي"**، مجلة عالم الفكر، عددا، مج ١٢، أبريل، الكويت، ١٩٨١م، ١٨٣.

(٧٢) عثمان الكعاك، **محاضرات في مراكز الثقافة بالمغرب**، معهد الدراسات العربية، القاهرة، ١٩٥٨م، ص ١٦ -١٧.

(73) M. Vonderheyden Op-cit, P 118.

(٧٤) صاحي بوعلام، **الحياة العلمية بإفريقية في عصر الدولة الأغلبية**، رسالة دكتوراه، كلية العلوم الإنسانية ولاجتماعية، جامعة بوزريعة، الجزائر ٢٠٠٨م،

(٧٥) موسي لقبال، **أوضاع ولاية إفريقية وبناء القصر الكبير في المنستير ١٨٠هـ/ ٧٩٦م**، حوليات جامعة الجزائر، العدد (٤)، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر ١٩٨٩م، ص١٧.

(٧٦) القاضي عياض، المصدر السابق، ج٣، ص٢٥٩.